الردع، الدفاع الصاروخي، والضررالمتوازي في العلاقة الإستراتيجية الإيرانية – الإسرائيلية

بقلم الدكتور أندرو تيريل؛ معهد الدراسات الإستراتيجية؛ شباط ٢٠٠٨

إن إحدى الهواجس المركزية للمحللين الإستراتيجيين الأميركيين الذين يدرسون الشرق الأوسط هو الخطر من إمكانية تطـــوير إيران لقدرة أسلحة نووية بإمكانها إستخدامها لتهديد دول إقليمية أخرى.إن هذه المخاوف موجودة برغم عدم التصنيف الأخير لملخص تقرير تقديرات الإستخبارات الوطنية (NIE)، " الأحكام الأساسية"، الذي يعرض الى أن برنامج تطوير الأسلحة النووية الإيرانية كان مجمداً في العام ٢٠٠٣. ويصرح تقرير الإستخبارات NIE أيضاً بأن المشاكل التقنية قد أعاقت جهود التخـــصيب النووي المستمرة لإيران التي يخضع فيها اليورانيوم الطبيعي الى عملية لتحويله الى مادة خام تستخدم في عمليات التصنيع ومن ثم " تخصيبه" لإستخدامه كوقود مفاعل (إستخدام سلمي عندما يستخدم فقط للطاقة النووية) أو "مخصب بشدة" لإستخدامه في أسلحة نووية. إن هذه الإستنتاجات من قبل جماعة الإستخبارات الأميركية حول الموانع والتراجعات في البرنامج الإيراني هـــي أخبار جيدة للغاية، لكنها ليست الرواية الكاملة.

فلسوء الحظ، يعرض التاريخ الكامل للبرنامج الإيراني، بما فيه الجهود السابقة للإحتفاظ بجهود التخصيب سرية، الى أن طهران ستستمر بالتأكيد، تقريباً، بالسعي للحصول على قدرة السلاح النووي بالرغم من العوامل المطمئنة المشار اليهـــا في في تقريـــر الإستخبارات NIE. علاوة على ذلك،إن تركيز إيران المستمر على تخصيب اليورانيوم، تحديداً، أمر مثير للقلق بما أن تطوير قدرة التخصيب على مستوى كبير هو الجانب الأكثر تحدياً، تكنولوجياً، لجهود بناء السلاح النووي (برغم الإستخدامات البديلـــة لهذه التقنية لأغراض سلمية). ولذلك ترتفع التساؤلات حول مدى خطر وجود إيران نووية وما هي الأهداف الأولية لأســـلحة نووية إيرانية إذا ما حصلت إيران على قدرة كهذه؟ كما أنه، وفي نظرة على الخطاب الناري للرئيس الإيراني أحمدي نجاد، يبدو منطقياً التساؤل عما إذا كان هناك من خطر جدي بخصوص مهاجمة إيران لإسرائيل بأسلحة نووية خلال فترة مقبلة من التـــوتر الإسرائيلي – الإيراني (مثلما قد يبرز من حرب لبنان جديدة). أما السؤال ذي الصلة الذي كان يُرفع أحياناً فهو إن كان على الولايات المتحدة أن تدرس في مرحلة ما مهاجمة المواقع النووية الإيرانية قبل أن تصبح إيران قوة نووية، وإن كان بإمكان هـــذا السيناريو أن يفقد قوته؟

إن هجوماً إيرانياً مستقبلياً على إسرائيل خلال زمن الأزمة هو، على الأقل، إحتمال بعيد، لكنه عرضة أيضاً لمروحة من المشاكل الهامة التي يجب درسها عنما تُدرس الإمكانية الإستراتيجية لتطبيق هكذا خيار بالنسبة لطهران. فإيران لديها ضوابط إيديولوجية وعملية تستثني، بظل الظروف الحالية، ضربات كهذه بالكامل بل بظروف أكثر صرامة. هذه الضوابط هي: (١) الضرر المتوازي الذي سيقتل بشكل صاعق عدداً كبيراً من الفلسطينيين كما أنه سيؤذي بشكل بارز سكان الدول العربية/ الإسلامية الواقعة على حدود إسرائيل، (٢) قدرة الردع للقوى الإستراتيجية الإسرائيلية التي قد يتم إستدعاؤها للدخول في عملية إنتقام ضخمة رداً على ضربة لإيرانية، و (٣) نظام الدفاع الصاروخي القوي والممتد لإسرائيل والى حد أقل، نظام دفاعها المدني المؤلف من ملاجئ سرية تحت الأرض ومواقع أخرى لحماية السكان. بالإضافة الى ذلك، قد يكون بعض القادة في طهران قلقين من يؤدي أي هجوم على إسرائيل الى المخاطرة بإلحاق الضرر بالقدس، ثالث أقدس مدينة في الإسلام.\

إن قضية الضرر الفلسطيني الموازي هو أحد أهم القضايا السياسية والإيديولوجية التي تواجه الإستراتيجيين الإيرانيين، برغم أنه نادراُ ما يُذكر في النقاشات الأميركية الحالية للخيارات الإيرانية. فمن غير الممكن مهاجمة إسرائيل من دون تعريض أعداد كبيرة من الفلسطينيين والعرب الإسرائيليين المجاورين الى التناثر الشعاعي المرتبط بهجوم كهذا. فالتسلسل القاتل لتناثر كهذا صعب التحديد بما أنه يعتمد على عوامل مختلفة تشمل إتجاه الريح، نوع الإنفجار (إنفجار أرضي مقابل إنفجار جوي)، ونطاق الإنفجار. ومع ذلك فإن نسب الهلكة المرتفعة يمكن أن تصل، وبسهولة، الى ٢٠ ميلاً بظل سيناريوهات منطقية عديدة. بالإضافة الى ذلك، يعيش عدد من المجتمعات العربية الإسرائيلية بالقرب من السكان اليهود تماماً، في حين أن الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة يمكن أن يكونوا أيضاً عرضة لجرعات مرتفعة من التناثر الإشعاعي القاتل. ومن سوء الحظ بالنسبة للفلسطينيين، فإن دقة الإستهداف الإيراني بما يتعلق بالصواريخ الطويلة المدى غير معروفة ويمكن الشك بها بشكل منطقي بسبب المشاكل المستمرة والعلنية التي كانت مرتبطة ببرنامج تجارب إيران الصاروخية. فإذا ما إخطأت الدقة الصاروخية الإيرانية، حتى ولو كان ذلك بشكل ضئيل، فإن الفلسطينيين، الأردنيين، اللبنانيين، أو السوريين سيدفعون ثمناً لضربة جوية إيرانية أعلى بكثير من الإسرائيليين. وعلى خلاف إسرائيل، لا يملك أي بلد عربي نظام دفاع مدني لإيواء السكان في ملاجئ، هذا عدا عن عدم إمتلاكهم لنظام دفاع صاروخي. ومع أنه من الممكن تصور بأن إيران قد تقبل تحت بعض الظروف خسارة أعداد ضخمة من المسلمين، وربما إلحاق الضرر بالقدس، فإن عملاً كهذا لن يُباشر به بخفة ودون تفكير ضد رأي قادة إيرانيين، كما أنه لا ينسجم وتصريحات القائد الإيراني المستمرة عن القلق بشأن الفلسطينيين. كما أنه لا يبدو منسجماً مع ما يدعيه بعض الإيرانيين، على الأقل، عن إلتزاماتهم تجاه الله.

إن قدرة الردع لدى القوى الإسرائيلية هي المشكلة الثانية التي تواجه المخططين الإستراتيجيين الإيرانيين. إذ يُعتقد بشكل واسع بأن لدى الإسرائيليين أعداداً هامة من الأسلحة النووية القابلة للتسديد والتي سيستخدمونها ضد إيران في أية مواجهة نووية. وفي حين أن تفاصيل هذه الترسانة خاضعة لسرية إسرائيلية كبيرة، فإن معظم الشرق أوسطيين يميلون للتصديق بأن هذه الترسانة كبيرة ومتنوعة وبأن قدرة الردع مبنية، بالطبع، على أساس مفاهيم كهذه. بالإضافة الى ذلك، فإن الإيرانيين واعون للعلاقة

الوثيقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. وقد يفترض الإيرانيون، بشكل صحيح أو خاطئ، بأن هجوماً ما على إسرائيل سيؤدي الى تدخل عسكري أميركي ضدها. وهذه النتيجة، على كل حال، قد لا تحدث، وقد لا تكون ضرورية لإنتصار إسرائيلي. وتعرض دراسة تشرين الثاني ٢٠٠٧ لأنطوني كوردسمان من "مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية" الى أن إسرائيل قد يكون لديها القدرة على تدمير الدولة الإيرانية من دون مساعدة أي بلد آخر، معتمدة بدلاً من ذلك على الميزات التي تمتلكها الأسلحة النووية الإسرائيلية في مجال الدقة والنطاق. أما إيران، وبرغم الكلام الطنان المفرط لبعض قادتها، فقد أظهرت قدرة متسقة ومنسجمة على إدارة دفاع منطقي مبني على أساس المصلحة الوطنية وكذلك في إدارة سياسات خارجية تتجنب، بشكل مدروس، إستثارة حرب نووية ضد بلادهم.

بالإضافة الى ذلك، هناك قضية برنامج الدفاع الصاروخي الممتد لإسرائيل، المؤلف حالياً من نظام "آرو" الإسرائيلي وأحدث النسخات لنظام "باتريوت" المنتج أميركياً. وبهذا الخصوص، قد يكون الدفاع الصاروخي أحد أهم الضمانات الهامة لأمن وبقاء إسرائيل في المستقبل. أما حالياً، فيسعى الإسرائيليون الى توسيع دفاعاتهم الصروخية الى نظام حماية مدروس، مفصل مبسوط بإمكانه الدفاع ضد أي عدو أو مجموعة أعداء. وبحسب مجلة " ديفينس نيوز" فإن الإسرائيليين الآن في خضم مجهود قوي ونشيط لإختبار وتطوير أنظمتهم الدفاعية بإستخدام عمليات محاكاة لهجمات صاروخية إيرانية. وفي حين أن من المحتمل ألا يتسرب شيئ كهذا عن الدفاع التصحيحي، فإن حماية بلد صغير ذي أهداف محدودة هو هدف قابل للتحقيق أكثر بكثير من بلد أكبر كالولايات المتحدة. بالواقع، إذا لم يكن بإمكان نظام دفاعي صاروخي شامل، مبسوط حماية بلد صغير كإسرائيل من عدو متخلف تكنولوجياً كإيران، فقد يكون حان الوقت للتخلي عن المفهوم كله معاً. علاوة على ذلك، يرفع النظام الدفاعي الصاروخي الإسرائيلي الإمكانية بأن يفشل هجوم إيراني ما ضد إسرائيل من التسبب بأضرار هامة بينما بإمكانه التسبب بإنتقام إسرائيلي ضخم يدمر الجمهورية الإسلامية، في الوقت الذي يترك إسرائيل سليمة لم تمس بأذى.

وهذا لا يعني القول بأن على الولايات المتحدة وإسرائيل أن تصبحا راضيتين عن البرنامج النووي الإيراني. فالديبلوماسية النشيطة، بما فيها الجهود المبذولة لتعزيز العقوبات المتعددة ضد إيران رداً على عدم إستعدادها للتعاون مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية مفوضة ومبررة بالكامل. كما أن إستعداداً أميركياً للوم الإيرانيين علناً لأي تصلب في المفاوضات قد يكون أساسياً للمساعدة في توسيع العقوبات الدولية، لكنه سيكون فعالاً فقط إذا ما نفذت الولايات المتحدة مفاوضات جدية وعلى مستوى رفيع نتشاور خلالها بإستمرار مع حلفائنا. وهناك حاجة للقيام بجهود خاصة لضم دول عربية خليجية، خاصة العربية السعودية، في هذه الحملة بما أن دول مجلس التعاون الخليجي قلقة أيضاً من الأسلحة النووية الإيرانية، رغم الأسباب المختلفة التي تهم الإسرائيليين. وبالعكس، يبدو العمل العسكري الأميركي الإستباقي ضد إيران غيرحكيم بعمق ويمكن أن ينتج عنه صعوبات هائلة بالنسبة للولايات المتحدة في العراق، وصعوبات ضخمة بالنسبة لإسرائيل في لبنان والأراضي الفلسطينية. كما أن الفوضى والتشويش في قطاع النفط قد يتسببان بعدد من النتائج الإقتصادية العالمية الخطيرة، بما فيها إمكانية وصول سعر برميل النفط الى الـ ٢٠٠ دولار.

أما القصف الجوي ضد إيران فقد يؤدي الى نفخ حياة جديدة في جسم النظام الإسلامي الإيراني ويؤذي بشكل قاس الحركة الإصلاحية الإيرانية التي تدب الآن. إن هجمات كهذه قد تؤخر البرنامج النووي الإيراني، لكنها لن توقفه. ولذلك، من المهم وزن كل العوامل ذات الصلة قبل دراسة أي هجوم. إن أي درس منطقي للكلفة والفوائد لهجوم كهذا يعرض الى أن إيران هي مشكلة قابلة للمعالجة والتي يمكن التعامل معها بطرق غير إستخدام القوة. بالواقع، فإننا قد نرى يوماً ما طهران موالية لإيران ونتطلع الى الوراء بإرتياح على أننا لم نوسع هيمنة رجال الدين الإيرانيين بهجوم غير ضروري، يقود ربما الى حرب غير ضرورية.